بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ما زال محفورا فى ذاكرتى – رغم مرور عشرات السنين – هذه اللحظة التى وقفت فيها أمام « القمص بولس » راعى كنيسة دمنهور ، ألقى كلمة المدرسة للترحيب به ، فى أول زيارة يقوم بها لمدرسة الأقباط الابتدائية . كان ذلك فى عام ١٩٤٧ ، وكنت تلميذًا فى هذه المدرسة التى كانت تضم نخبة من أكثر المدرسين كفاءة وإخلاصًا . وفيها تعلمت الدرس الأول : لا فرق بين مسلم ومسيحى .. وكلنا مصريون .

كنا نقف فى طابور الصباح نرقب العلم وهو يرتفع ببطء ، وتخفق قلوبنا معه ، ونهتف معا بصوت كان يزلزل جدران المدرسة كلها : تحيا مصر ..

وحتى اليوم ما زلت أحمل شعورًا عميقًا بالامتنان والعرفان بالفضل لكل من علمنى حرفًا فى هذه المدرسة .. الأستاذ يوسف .. والمغربى أفندى .. وجرجس أفندى والأستاذ عيد المعطى .. ولا أذكر أنى سمعت من أحد منهم يومًا كلمة تشير إلى تفرقة بين مسلم ومسيحى .

وما زال فى ذاكرتى من أيام الطفولة والصبا أصدقاء كثيرون وجيران وزملاء دراسة من الأقباط والمسلمين .. وذكريات الصداقة الصافية التى

جعلتنا لا نرى فارقا يفرق بين من يعبد الله فى المسجد ومن يعبد الله فى الكنيسة ، وكان يكفينا أننا نعبد إلهًا واحدًا .

وفى البيت الذى كنت أعيش فيه كانت هناك أسرة مسيحية كنا نتعامل معها على أنها امتداد لأسرتنا .. الأولاد يلعبون ويخرجون معا ، والبنات معا ، والسيدات يجمعهن فنجان القهوة فى العصر وأحاديث السمر .. وكنا نتبادل الهدايا .. ونأكل حيث يحين وقت الطعام هنا أو هناك .. لا فرق .

وهكذا عشت حياتى ..

عشرات الشخصيات .. والأحداث .. والمواقف على امتداد العمر .. جمعت بينى وبين اخوة وأصدقاء وزملاء من الأقباط ولم أشعر من جانبى أو من جانبهم بأى بادرة تدل على شعور بالتفرقة .

وفى الندوات والاجتماعات كان طبيعيا أن يلتقى القسس والشيوخ ويتحدثوا كأصدقاء .

وهكذا عاشت مصر كلها من الشلال إلى السلوم .. المسلمون والأقباط .. يعيشون معا فى سماحة ومحبة ولا أذكر أنى لمست التعصب فى أى شخص قابلته فى هذه الفترة .. ولا سمعت كلمة « الأقلية » .. وكل ماكنا نسمعه ونقوله هو : أن الدين لله والوطن للجميع .

وفجأة ظهرت فى مصر أمور غريبة . ظهر الإرهاب يدعى أنه يقتل ويخرب باسم شريعة الإسلام .. وظهر التعصب والتحريض .. وظهر جمود العقل وضيق الأفق وظهرت تفسيرات غريبة ومريبة للنصوص .. ومع كل

ذلك بدأ الحديث عن الأقباط كأقلية .. ثم تزايد .. ثم جاء أحد الأساتذة بدعم مالى من منظمة دولية يدعو إلى تنظيم مؤتمر عن الأقليات فى منطقة الشرق الأوسط واعتبر الأقباط فى مصر ضمن هذه الأقليات التى تحتاج إلى حماية .. حينئذ أدركت أن فى الأمر « شيئا ما » لم يكن ظاهرًا وقتها .. ولكن مصر كلها انتفضت بالرفض والغضب لظهور هذه الفكرة .. وأعلن قداسة البابا شنودة أنه يرفض اعتبار الأقباط فى مصر أقلية ، لأنهم مواطنون يتساوون فى المواطنة مع غيرهم ، ولايعانون مايعانيه الزنوج مثلاً فى أمريكا ، أو المسلمون فى ألمانيا ، أو غيرهم .. ثم جاء مقال لأستاذنا محمد حسنين هيكل بعنوان « الأقباط ليسوا أقلية فى مصر » نشره فى صحيفة الأهرام (ويجده القارئ فى نهاية هذا الكتاب » فكان ضربة قاضية للفكرة ولأصحابها .. وإن كان صاحب الفكرة فيما يبدو كان مضطرًا لأداء دوره فعقد المؤتمر خارج مصر ، ولم يحضره أحد من المصريين .. لا من المسلمين ولا من الأقباط .. ومع ذلك أصر على مناقشة موضوع الأقباط على أنهم أقلية .. وكان ذلك من أغرب ماجرى فى هذه الفترة .

ولكن هذا « الشيء » الذى كان خافيًا اتضح بعد ذلك ، حين بدأت الصحافة الأمريكية تتحدث عن اضطهاد الأقباط فى مصر ، ثم بدأت لجنة فى الكونجرس تعقد جلسات استماع عن وضع الأقباط فى مصر .. هنا ظهر الخيط الذى يربط بين أحداث الإرهاب التى كان ضحاياها من الأقباط والمسلمين ، وتصوير هذه الأحداث على أنها حركة عدائية ضد الأقباط ، ثم عقد مؤتمر دولى لمناقشة هذه القضية المصطنعة ، ثم الكونجرس ، ثم محاولة استخدام الموضوع كله ورقة للضغط على مصر والتلويح بها كأداة للابتزاز السياسى .

ولا يخفى أن ذلك تزامن مع معركة سياسية تقودها مصر بحكم قيادتها للعالم العربى ودورها الإقليمى ، للضغط على إسرائيل لكى تتخلى عن أطماعها فى الاستيلاء على الأرض العربية ، وقبول إقامة السلام المتوازن ، سلام يعطى لإسرائيل الأمن الذى تتخذه ذريعة للعدوان والاغتصاب ، ويعطى للعرب أرضهم وحقوقهم ، ويحقق للمنطقة كلها الاستقرار .

هذا الدور المصرى لم يكن موضع ترحيب .

وأثيرت لمصر المشاكل بقصد شغلها ، واستنزاف طاقتها ، ودفعها إلى الانكفاء على ذاتها والتخلى عن هذا الدور .

فى هذه المرحلة ذهبت إلى قداسة البابا شنودة أسأله عن رأيه وموقفه .. فوجدته كما عرفته رجلاً من رجال مصر المخلصين ـ على وعى بكل ما يجرى .. وحريص كل الحرص على إحباط المؤامرة ، ووأد الفتنة فى مهدها ، لكيلا لا يحقق مثيروها هدفهم الدنىء .

□□□

ومن حسن حظى أنى التقيت فى حياتى برجال لايمكن أن أنساهم .. لكل منهم شخصية متميزة .. وفكر راق .. وإرادة ملهمة .. وروح تشع على كل من يقترب منها .. ومن بين هؤلاء فضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر .. وقداسة البابا شنودة بطريرك الأقباط الأرثوذكس فى مصر .. وقد استمرت علاقتى بهما سنوات طويلة حتى أصبحت تجمعنى بهما صداقة عميقة ، واتفاق أرواح وعقول ، واستمتعت معهما بساعات طويلة من الحوار حول كل الموضوعات التى تشغل إنسان هذا العصر .. ووجدت فى كل منهما مشاعر حب صادق تفيض على

الآخرين ، وسعة صدر بلا حدود ، واستقامة فى التفكير المنطقى ، وعلمًا واسعًا بأمور الدين والدنيا معا ..

ولقد سجلت بعض حواراتى ولقاءاتى مع فضيلة الدكتور محمد سيد طنطاوى فى كتابين : « الأمية الدينية والحرب ضد الإسلام » و« الغرب والإسلام » وها أنذا أسجل فى هذا الكتاب جانبا من لقاءاتى وحواراتى مع قداسة البابا شنودة .

ولأن لقاءاتى مع قداسة البابا استمرت لأكثر من عشرين عاما ، وكان معى فى معظمها صديق العمر المستشار عزيز أنيس نائب رئيس هيئة قضايا الدولة وكان عضوا بالمجلس الملّى لفترة طويلة ، وتم بعضها فى مقر إقامة البابا فى البطريركية بالقاهرة ، وبعضها الآخر فى دير الأنبا بشوى ، وكانت اللقاءات تطول حتى تستغرق أياما .. وقد طلبت من قداسة البابا أن أقضى ليالى فى الدير لأعايش حياته اليومية فيه وحياة الرهبان ، وكان دافعى إلى هذا الفضول الصحفى من ناحية ، والرغبة فى المعرفة أكثر عن المسيحية المصرية بالمعايشة من ناحية أخرى ، والحرص على اكتشاف القاسم المشترك بين المسلمين والمسيحيين ، والخصوصية المصرية التى تجعل الإسلام فى مصر بكل هذا التسامح ، وتجعل المسيحية بكل هذا التعاطف ، وتوحدّ بين المسلمين والمسيحيين فى السلوك ، وأساليب التفكير ، وعادات وتقاليد الحياة الاجتماعية ، إلى حد أنك لا تستطيع أن تفرق بين المسلم والمسيحى لا من السحنة ، ولا من طريقة الحديث والتفكير ، ولا من السلوك ، ولا من عادات الموت والزواج والاحتفال بالمولود أو إقامة الموالد والاحتفال بالأعياد .. وإلى حد أن تجد المسيحيين لا يظهرون فى رمضان وهم يأكلون أو يدخنون احترامًا لمشاعر المسلمين الصائمين ، كما تراهم يقيمون موائد الإفطار ويحرصون على الأطباق الخاصة التى تميز رمضان فى مصر .

من الصعب جدا أن تدرك الفارق بين المسلم والمسيحى .. لأن الجذور واحدة .. والأصول واحدة .. وبناء العقول واحد .. والثقافة واحدة .. والحياة مشتركة بصورة لاتجدها فى أى بلد آخر .. فى البيت الواحد يسكن المسلمون والأقباط .. والمحل الواحد قد يملكه شريكان واحد مسلم والآخر قبطى .. وشيخ الأزهر يعلن أن والده كان مزارعًا وكان شريكًا لقبطى يزرعان الأرض معا ، ويقتسمان العائد معًا ، وينوب أحدهما عن الآخر ..

والبابا شنودة يعلن أنه عقب ولادته ماتت والدته وانشغل الجميع بالوفاة عن المولود الجديد فحملته جارته المسلمة وأرضعته دون حساسية أو حرج .. ويعلن أن أصدقاء شبابه من المسلمين كانوا أكثر من أصدقائه من الأقباط .

وهذه إحدى سمات عبقرية مصر كوطن .. وعبقرية المصريين كشعب .

□□□

هذا الكتاب دراسة لوضع الأقباط فى مصر باعتبارهم مصريين لهم كل الحقوق وعليهم كل الواجبات وهو أيضا محاولة للاقتراب من قداسة البابا شنودة كإنسان .. للتعرف على فكره وما يشغله .. والبابا شنودة ليس رجل دين فقط .. إنه فى الحقيقة أحد المفكرين المصريين المعاصرين ، فهو مشغول بقضايا الثقافة ، والاقتصاد ، والمجتمع .. وهو من القلة النادرة من رجال الدين الذى استطاع أن يحقق ماهو مستحيل بالنسبة للآخرين : أن يجمع بين التبتل والتفرغ للعبادة ، وأداء دوره فى رعاية أبنائه الأقباط ، ويعايش الحياة بأحداثها وتطوراتها ليس فى مصر وحدها بل فى العالم أيضا .. ومن هنا فإن الحوار معه متعة عقلية وروحية .

ولا يشمل هذا الكتاب كل الحوارات التى دارت عل مدى أكثر من عشرين عامًا .. فهذا أمر صعب ، ولا يكفيه كتاب واحد .. ولكنه يتناول

فقط بعض القضايا رأيت أن هذا هو الوقت المناسب لطرحها سواء فيما يتعلق بالأقباط فى المهجر ، أو ما يتردد عن الدور السياسى للبابا ، أو عن المسيحية السياسية ، أو عن علاقة الكنيسة بالمجتمع والدولة ، وغير ذلك من الموضوعات التى رأيت أنها تشغلنا فى هذه الفترة ، وأرجو أن أجد الفرصة لمتابعة واستكمال الموضوعات بعد ذلك .

□□□

وهذا الكتاب ، بما فيه من أحاديث البابا شنودة ، هو الرد على كل من يحاول إثارة الفتنة أو الأحقاد الطائفية ..

وفى الوقت نفسه فإننى أسجل هنا موقف فضيلة شيخ الأزهر حين أعلن أن الإسلام يحترم شخصية المخالف له ، ولا يفرض عليه حكمه فى الحلال والحرام ، ولا يلزمه بالخضوع لشرائعه ، لأن الإسلام أقر مبدأ الحرية الدينية ، ولاترضى شريعة الإسلام عن أى تفرقة بين المسلم وغير المسلم ، وكل من يعيش على أرض مصر له نفس الحقوق وعليه نفس الواجبات دون تفرقة .

وأسجل أيضا موقف أستاذ جليل هو شيخنا الشيخ محمد الغزالى الذى أعلن أن المبدأ الإسلامى فى معاملة غير المسلمين هو : « لهم مالنا وعليهم ماعلينا » أى المساواة الكاملة فى الحقوق والواجبات ، مع ضمان لذلك على مر التاريخ ، ويكفى أن نرجع مثلا إلى نص المعاهدة التى وقعها عمر بن الخطاب مع « سفرنيوس » أسقف بيت المقدس كنموذج للموقف الإسلامى من المسيحيين إذ قال : « بسم الله الرحمن الرحيم .. هذا ماأعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل « إيلياء » من الأمان . أعطاهم أمانًا لأنفسهم ، وأموالهم ، ولكنائسهم ، وصلبانهم ، وسقيمها ، وبريئها ، وسائر ملتها ، أنه لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من غيرها ،

ولا من صليبهم ، ولا من شيء من أموالهم ، ولا يُكرهون على دينهم ، ولايضار أحد منهم .. فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن .. » .

وختم عمر هذا العهد بتوقيعه وشهد عليه خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية بن أبي سفيان ، مستلهمين فى ذلك وصايا النبى ﷺ فى معاملة أهل الكتاب وما استقرت عليه الأوضاع فى علاقات المسلمين بغيرهم .

ويكفى أن نتأمل هذه الآية الكريمة فى سورة آل عمران (٨٤) :

﴿ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ .

فالمسلم مأمور من ربه أن يحترم ويؤمن بكل ما أنزله الله من ديانات ورسالات .

والإسلام يعلن ويؤكد أن اختلاف الأديان إرادة الله وكل محاولة لفرض ديانة عالمية وحيدة هى محاولة فاشلة لأنها ضد إرادة الله .

﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ..﴾.

ويكفى أن ننظر إلى أعظم مبدأ يقرر الحرية الدينية : قول الله تعالى :

﴿ لا إكراه فى الدين﴾ .

وتصل حرية العقيدة إلى حرية الشرك وعلى المسلمين حماية المشركين وتأمينهم :

﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه﴾ .

والإسلام يفتح قلبه لكل المخالفين له ويأمر أتباعه أن يكونوا كرماء معهم :
﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾ .

هذا هو موقف الإسلام لمن أراد أن يعرفه من مصادره الأصلية ..

أما الفكر المنحرف فليس حجة على الإسلام أو المسلمين ..

وغاية ماأردت أن أصل إليه فى هذا الكتاب هو أن أتصدى للعابثين والمتآمرين على مصر والمصريين .. وأن أدعو المخلصين فى الداخل والخارج لكى ينتبهوا ويكونوا على وعى بالمؤامرة .

فالإسلام والمسيحية فى مصر يتعايشان فى سلام وتعاون .

والجرائم التى تحدث بتحريض ممن يستفيد من إثارة الفتنة لن تؤثر فى صلابة الوحدة الوطنية .

وستبقى مصر آمنة ومؤمنة ..

وسيبقى شعار الجميع ما قاله شوقى على لسان كل المصريين .

الدين للديّان جلّ جلاله .. لو شاء ربك وحد الأديان ..

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه ..

وأدعو الله أن يحمى قلوبنا من العمى ، وأن ينير بصيرتنا ويلهمنا طريق الحق الذى يرتضيه ، وألاّ نحيد عن الطريق الذى بيّنه .

رجب البنا